



كل ردود الفعل والتعليقات على التدخل الروسي وعملياته الجوية جاء في سياق «قبول مبدئي» بهذا التدخل ومجرد اعتراض جدي على الأهداف التي ضربها، فهي أكدت مجبيه أولاً لتعوييم نظام بشار الأسد ولذلك تركّز الغارات على موقع المعارضة التي أنزلت هزائم بهذا النظام، وثانياً لمنافسة الولايات المتحدة وتحالفها الدولي في الحرب على تنظيم «داعش» ما يفسّر إنشاء روسيا «الحلف الرباعي» الذي يضمّها مع إيران والعراق ونظام دمشق.

وحيث راقب فلاديمير بوتين مواقف باراك أوباما بعدما عاين عن كثب مواقف الأوروبيين، لا بد أنه لاحظ رسوخها في الركون للأمر الواقع الذي فرضه، فخصوصه لن يتخلوا ضده في سوريا.

لكنه لم يقرر الذهاب إلى سوريا من أجل الأسد، ولا من أجل إيران، بل من أجل أوكرانيا. كان جانب مهم من لقاء نيويورك مع أوباما خُصّص لأوكرانيا ولم يسمع فيه بوتين ما يتنّاه. لذلك قرّر خوض حربه في سوريا... على طريقة الدبّ الروسي. مع الطلعات الجوية الأولى، وتكرارها، أكد الرئيس الروسي لكل من تحدّث معه في الشهور الأخيرة أنه بلع تعهّداته التي تركّز برمّتها على إنهاء الأزمة السورية بـ «حل سياسي» تقوده روسيا وتكون ضماناً للأسد ولحسن سلوكه في فترة محدودة من المرحلة الانتقالية، وبالتزامن يجري تفعيل الحرب ضد «داعش».

وعلى رغم أن هذا السيناريو مثالٍ وأجمل من أن يصدق، إلا أن الحدّ من الإرهاب، ومن موجات المهاجرين بالنسبة إلى أوروبا، شجّع مختلف الأطراف على استشاف بعض المعقولة فيه، كما شكّل هدفين يستحقان في نظرها «الثمن السياسي». لذا راحت العواصم الغربية تتحاذق بالصيغ والألفاظ لتغيير مواقفها السابقة وإعلان استعدادها لقبول استمرار الأسد في موقعه. مع ذلك كان الجميع متيقناً بأن الخيار الروسي المطروح يحتاج إلى تفاوض واتفاق دوليين مسبقين، وبأن

بوتين لن يحسم خياراته إلا بعد لقائه مع أوباما، إلا أن انكشفت ضخامة الإعداد للتدخل العسكري والإعلان عن «الحلف الرباعي» وإقامة مركز استخباري تابع له في بغداد استباق ذلك اللقاء، وأثارت كمّاً من التساؤلات عن نيات روسيا وأهدافها وخططها. بل إن بوتين استبق خطابه من على منبر الأمم المتحدة مكرراً أن محاربة «داعش» تمر بالضرورة عبر التنسيق من الأسد ونظامه.

طالما أن الأميركيين والأوروبيين يواصلون فرض عقوبات اقتصادية على روسيا وليسوا مستعدّين بعد للتفاوض على أوكرانيا والأمن الأوروبي، وطالما أن واشنطن تبدي ميلاً إلى البحث مع إيران في تسوية سورية، لذلك لم يبق أمام بوتين سوى انتزاع «الورقة السورية» لتوسيع نطاق التفاوض وال Howell دون أي تخريب على المقايسات التي يسعى إليها.

وهكذا تبيّن لواشنطن أن «الخطة ب» لما بعد الاتفاق النووي لم تكن إيرانية فحسب بل إيرانية - روسية، أقله في ما يتعلق بسورية. كانت إيران حاولت الحصول على دور مشترك مع الولايات المتحدة في محاربة الإرهاب في العراق، وكذلك في سورية، مقتربة اعتماداً على الميليشيات لم يلقَ قبولاً لدى الأميركيين، أما الروس فلا يمانعونه ولا يرون ضرورة للنظر في الاعتبارات التي دعت أميركا وحلفاءها إلى استبعاد ميليشيات شيعية وقوات أسدية عن القتال في مناطق سنية حتى لو كان الهدف/ أو بالأخص لأن الهدف دحر تنظيم «داعش» واقتلاعه من بيئته سنية يضطهدتها ويفتك بأبنائها.

ذاك أن سجل السوابق والارتكابات لـ«الجيش الأسد» في سورية وميليشيات إيران العراقية يجعل التعاون معهما بمثابة «تشريع» دولي للاستباحة والمجازر والانتهاكات ضد السكان.

يوم الأربعاء الـ 30 من أيلول (سبتمبر) شنت مقاتللات حربية روسية هجماتها الأولى على مناطق المعارضة السورية التي تقاتل ضد النظام، وقال الإعلام الروسي الذي استعاد فوراً «برو باغنديت» السوفياتية أن الضربات «دمرت موقع لتنظيم الدولة الإسلامية الإرهابي»، ولا يزال يكرّر هذه الصيغة.

لا مجال لأن يعرف بسقوط بضع عشرات من المدنيين ولا بأنه لم يصب أي موقع «داعشي» لأن -بساطة- لا وجود للتنظيم في تلك المناطق.

تعرف المواطنون السوريون لتوهم إلى قصف تناقض ضراوته براميل النظام والصواريخ البالستية والمقدوفات الكيماوية التي ظنوا أنها ذروة ما يمكن أن يتعرضوا له. كانوا يترحمون على وحشية النظام إذ جاءتهم وحشية أشدّ... وفي اليوم نفسه أعلن «التحالف الدولي» بقيادة الولايات المتحدة أن طائراته قامت بغارات عدّة على موقع محدّدة لـ«داعش»... ثم أعلن عن وصول مئات المقاتلين من «لواء الفاطميين» التابع لـ«الحرس الثوري» الإيراني للمشاركة في هجوم بري ضد مناطق المعارضة.

في ذلك الوقت كان الأسد يتفرّج: أميركا تضرب «داعش» وروسيا تضرب المعارضة وهو يتفرّج، فالدولتان الكبيريان جاءتا إلى مصيدة الإرهاب التي أعدّها والإيرانيين لها، ولا يهمه من يُقتل وما يُدمّر في سورية، المهم أن يبقى ونظامه في السلطة، ولو فوق ركام من الخراب.

ثمة تغيير سياسي وعسكري في المعادلة جعل النظام يبني علامات انفراج واستفادة، فاعلامه يوحّي بأنه «يدير» المعركة، وزعيم خارجيته يقول للمعارضة من نيويورك أنها لن تحقق على طاولة المفاوضات «ما فشلت في تحقيقه على الأرض»، مقتبساً عبارة «ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة» الموجّهة سابقاً إلى إسرائيل. ثم ها هو الأسد نفسه يخّير العالم بين «انتصار الحلف الرباعي» و «إلا فنحن أمام تدمير المنطقة بأكملها، وليس دولة أو دولتين».

ليس مؤكّداً أن الأسد سيبقى طويلاً ليتّمّع بما يتوقّعه من «انتصار» أو «دمار» لكنه غير مخطئ في أن المعطى الروسي غير المسار لمصلحته وأجّج الصراع على النحو الذي يأمله، وإنْ كان حدّيّه عن النتائج مبكراً وغبياً.

لا شك في أن الرهان الأكبر للأسد على أن بوتين يشبهه في الوحشية بل يتفوّق عليه، بدليل أنه باشر حملته السورية بمنطق إبادة لا بمنطق حرب، فلا تميّز بين مدني وغير مدني كما يفعل «التحالف الدولي» (الأميركي). فما المتوقّع من نهج كهذا؟

لم يؤخذ الأميركيون وحلفاؤهم على حين غرّة، فكل شيء كان أمامهم لكنهم بدوا كمن يُخدعون بإرادتهم، فهم كانوا واضحين منذ البداية في أنهم لن يتخلّوا عسكرياً في سوريا، وكانوا واضحين أخيراً في تنازلهم لروسيا عن ورقة «تنحّي الأسد»، ولم يكن ذلك ليعني بالنسبة إلى روسيا سوى أنهم مشوّشون يفتقدون أي استراتيجية وأي خيارات – يريدون رحيل الأسد ولا يريدون إسقاطه عسكرياً، ويقولون أنهم مع الشعب السوري ولا يثّقون بالمعارضة – لذا كانت مواقفهم أشبه بدعوة إلى بوتين للتدخل، ففعل. لكن، إذا لم يوضح سريعاً توجّهاته نحو حل سياسي، فإن التطورات العسكرية ستقوّض هذا الحل وستحمل خصومه الدوليين والإقليميين على إعادة ترتيب أوراقهم وتفعيل دعمهم للمعارضة ومساعدتها على الصمود. في المقابل، إذا أصرّ على إخضاع الأزمة السورية للمقاييس الدولية واللعب على نغمة التقسيم الإيرانية – الأسدية فإنه سيستفز كل القوى الإقليمية وعليه أن يقرّ إذا كان الأسد يستحق مثل هذه المجازفة ومن أجل ماذا.

والأهم أخيراً، إذا واصل على أسلوبه الأفوه الحالي فإن سحقه للمعارضة قد يرضيه بنتائج سريعة ستبقى غير نهائية، بل سيثبت دفعه الوضع السوري نحو «الأفغنة» وحرب طويلة الأمد لن تسهل القضاء على «داعش» – هدفه المعلن، بل ستتشعل عندئذ الحروب الدينية والمذهبية التي ظلّت تحت الاحتواء خلال الوجود السوفييتي في أفغانستان، إلا أنها ستتصبح عليهة ومكشوفة مع الوجود الروسي في سوريا.

الحياة اللندنية

المصادر: